صراعُ القوةِ الدوليةِ وإستراتيجيتها التوسعية على سواحل البحر المتوسط مُنتصف القرن السادس عشر "دراسة تحليلية".

عبداللطيف عبداللطيف عبدالغني مشرف
باحث دكتوراه - قسم التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات للأداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، مصر
abdeltaifmy@gmail.com

أ.م. د/خلف عبد العظيم الميرى
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات ، جامعة عين شمس، مصر
khelmeery@gmail.com

أ.م.د / سلوى أبراهيم العطار
أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر
كلية البنات، جامعة عين شمس، مصر

المستخلص:

وصِفَ البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر بأنّه "ساحة معركة"، فكانت تلك المعركة بين قوتين دوليتين هما مملكة إسبانيا في الغرب، والدولة العثمانية في الشرق، إذ شهد القرن السادس دليلًا على قوة الدولة العثمانية وتوسعها، وكذلك صعود قوة إسبانيا بعد توحيدها على يد فرديناند وإيزابيلا، فكان البحر المتوسط نقطة تلاقي لتوسعات تلك القوى الدولية، فشهد البحر المتوسط في هذه الفترة التاريخية إستراتيجية توسع الدولة العثمانية على سواحله، وكذلك الرغبة الأوروبية المتمثلة في القوة الإسبانية وغيرها في السيطرة على البحر المتوسط؛ وستتناول هذه الدراسة توسعات الدولة العثمانية على سواحل البحر المتوسط، وكذلك تلقي الضوء على الصراع العثماني الإسباني في هذه الفترة التاريخية، وكذلك المكان الجغرافي وهو البحر المتوسط.

الكلمات الدالة: الدولة العثمانية، البحر المتوسط ، القوى الدولية ، القرن السادس عشر.

تاريخ ارسال البحث:2021/4/4 تاريخ قبول البحث: 2021/5/20

مشكلة البحث:

تتعدد مشكلـــــــة البحث وجوانبها، ليس فقط في أهمية البحر المتوسط، ولكن في كثرة الصراعات الدولية في حوض البحر المتوسط، فهذه الصراعات لا تقتصر فقط على الدولة العثمانية أو الإسبانية، بل بها أطراف دولية وإقليمية لا بُد من الإشارة إليهم، فمن هنا يتجلى السؤال الرئيس لتوضيح مشكلة البحث، وهو: ما الإستراتيجية التوسعية التي اتبعتها القوى الدولية في توسعتها وتواجدها على سواحل البحر المتوسط؟

أهمية البحث:

يرجع أهمية البحث إلى الدور المهم الذى لعبه البحر المتوسط، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إنَّ القوى البحرية مارست دورا في تشكيل التاريخ الحديث، وعاملا رئيسًا للكثير من الصراعات الدولية، وذلك نظرا لأهمية حوض البحر المتوسط الاستراتيجية أو الاقتصادية، فيتيح لنا البحث الوقوف على الأسباب الحقيقية للصراعات الواقعة بين الدولة العثمانية وإسبانيا، ودراسة الصراع دراسة شمولية من الجوانب كافة، وأيضًا إيضاح كيفية التوسع العثماني وإستراتيجيته على سواحل البحر المتوسط، وصراعه مع القوى الأوروبية في تلك الفترة، وأثر هذا التوسع والصراع على منطقة شمال أفريقيا، ولا سيما منطقة المغرب العربي، وسيحاول البحث توضيح هذه الإستراتيجية التوسعية للقوى الدولية وربطها بالأحداث المعاصرة.

أهداف البحث:

يهدف إلى التعرف على أهمية حوض البحر المتوسط، وأثره على بروز القوى البحرية الدولية، ومن ظهور الصراعات الدولية، المتمثلة حينذاك في الصراع العثماني الإسباني، ومِن ثَمَّ ظهور قوى وتحالفات دولية أخرى، ويتحقق ذلك عبر إنجاز أهداف فرعية، هي:

1- التعرف على التوسعات العثمانية في حوض البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر.
2- التعرف على أهداف التوسع العثماني والإسباني في منطقة البحر المتوسط.
3- الوقوف على أسباب الصراع الإسباني على سواحل البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر.
4- دراسة العلاقة بين هزيمة الدولة العثمانية في معركة ليبانتو البحرية والتوسع الإسباني في منطقة البحر المتوسط.

تســـــــاؤلات البحث:

يطرح هذا الموضوع عدة تساؤلات منها:

- ما أهمية حوض البحر المتوسط في صراع القوى الدولية.
- ما السياسة والإستراتيجية التي اتبعتها الدولة العثمانية للسيطرة على حوض البحر المتوسط.
- كيف ساهمت الظروف الدولية في بروز الصراع العثماني الإسباني على سواحل البحر المتوسط.
- كيف ساهم حوض البحر المتوسط في أن يصبح حلقة صراع بين القوى الغربية وبين القوى الشرقية متمثلا في الصراع العثماني والأوربي؟
- ما أثر الصراع العثماني الإسباني على البحر المتوسط ومنطقة المغرب وشمال أفريقيا؟

منهج البحث البحثية:

سيتبع الباحث في دراسته منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي.

تمهيد:

على مدار مئات السنين كان البحر المتوسط مركز الساحة الدولية، ومع الوقت انتقل ثقل الأحداث للمحيط الأطلسي، وفي الآونة الأخيرة انتقلت الساحة المركزية للمحيط الهادئ، ومع ذلك، فإن الجزء الشرقي لحوض البحر المتوسط، والذي شهد في الماضي نقطة التقاء بين الشرق والغرب، وكان إحدى بؤر صراعات القوى الكبرى بفترة الحرب الباردة، فلا زالت هناك أهمية استراتيجية له، إذ إنَّ الجزء الشرقي لحوض البحر المتوسط ساحةٌ تبث قوة عسكرية للشرق الأوسط، وتوجد فيه مسارات للثروة والنفوذ معًا، حيث استخدمه الغرب قديمًا بصفته مسارا للحروب الصليبية، وكان ورقة ضغط سياسية واقتصادية على الدولة الإسلامية الواقعة على سواحله.

حيث شهد البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، عدة صراعات بين الشرق والغرب، وكان أبرز هذه الصراعات صراعات التوسع والسيطرة بين الدولة العثمانية وإسبانيا، ولكن كانت إستراتيجية التوسع والسيطرة الأكبر كانت للدولة العثمانية، **لذلك أُخْتِيرَ** هذا الموضوع لتوضيح أبعاد الصراع، والوقوف على العوامل المسببة لهذا الصراع، سواء مباشرة أو غير مباشرة، ومن ثم تحليل إستراتيجيات التوسع العثماني في هذه الفترة، ووضع عدة نتائج وملاحظات عن هذه الفترة التاريخية من تاريخ البحر المتوسط.

المَبْحثُ الأوّل: المشهد السياسي للبحر المتوسط في بداية القرن السادس عشر.

كان لسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين على الأراضي الإسبانية عام 1492م، أثرٌ كبيرٌ في تاريخ إسبانيا الكاثوليكية، إذ أدى سقوط غرناطة إلى توحيد إسبانيا، وذلك بعد اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون، فكان لهذا الاتحاد أثر في إحياء النزعة الكاثوليكية الدينية لإسبانيا، وعزز أيضًا ظهور الملاحة الاستكشافية الإسبانية لمناطق العالم الجديد، التي أدت إلى اندلاع موجة استعمارية إسبانية لكثير من مناطق العالم الجديد، وجلبت هذه الموجة الاستعمارية الكثير من الثروات التي كانت قادرة على تحويل إسبانيا إلى إمبراطورية عالمية، تنافس الكثير من القوى الدولية حينذاك، وأبرز هذه القوى الدولة العثمانية (مشرف، 2017، صفحة 53).

كانت السياسة الاستعمارية الإسبانية مبينة على التوسع والإفادة الاقتصادية القصوى من الموارد والثروات والقيمة التجارية للأراضي التي فُتِحَتْ حديثًا، فعند النظر والتدقيق في المجتمع الإسباني، نجد أنَّ القشتاليين كانوا يتركزون بشكل أساسي في الأمريكيتين، ومن ناحية أخرى تركز الأوارغونيون على سواحل البحر المتوسط، وذلك لدرايتهم باقتصاد البحر المتوسط (Hess, 1968, p. 3).

امتلكت مملكة أراغون جزرًا مثل: جزر البليار وسردينيا وصقلية، وكانت تراقب وتلاحظ تقدم المسلمين في غرب البحر المتوسط، إذ دفعت هذه الأحداث المتمثلة في تقدم المسلمين على سواحل البحر المتوسط؛ الملك فرديناند إلى احتلال النقاط الإستراتيجية على طول ساحل شمال إفريقيا والتمسك بها (Hess, 1968, p. 4).

إذ نرى مِن خلال اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون، استطاع الإسبان أن يسبقوا العثمانيين في فرض السيطرة على المغرب الكبير، ونرى أيضًا أن هذا الاحتلال الإسباني كان محفوفًا بالمخاطر، وأبرز هذه المخاطر وجود المسلمين الذين أجبرتهم إسبانيا على ترك وطنهم الإسباني وهم "الموريسكيون: المسلمين الذين أجبروا على التنصير بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين عام 1492م (مشرف، 2017، صفحة 8)"، إذ أثر هذا الطرد على الاقتصاد الإسباني في الداخل بالسلب، وأيضًا على سياسة إسبانية الخارجية، وذلك من خلال ظهور حركة القراصنة من المسلمين المُهجّرين الذين تحركوا بدافع الانتقام من

مملكة إسبانيا التي طردتهم من وطنهم وسلبت أملاكهم، وذلك ما بين عامي "1609- 1614م"، فشكلوا فرق بحرية من أجل أن يكبدوا إسبانيا خسائر كبيرة في أسطولها وتجارتها البحرية.

كانت الدولة العثمانية تمتلك جميع الموارد اللازمة لتصبح قوة بحرية، إلا أنها كانت تفتقر إلى التنظيم والهيكل القيادي الذي يجعلها قوة بحرية عظمى، في حين أن الموريسكيين أو المسلمين الأندلسيين ودول المغرب الكبير، كان لديهم معرفة كبيرة بعالم البحار وتنظيماته، فأفادت الدولة العثمانية بذكاء من هذه الخبرات، فتحالفت معهم، فلذلك يرى بعض المؤرخين تفسير أهمية هذا التحالف في هذه الجملة "لم يكن تحالف العثمانيين والقراصنة المسلمين خطوة سياسية منطقية فحسب، بل كان أيضًا اقتراحًا عمليًا، أكسبه قوة بحرية كبرى" (Imber, 2002, p. 288).

ولتدعيم هذا التحالف والإفادة منه عين الباب العالي العثماني القائد البحري خير الدين بربروسا في عام 1533م حاكمًا على إيالة الجزائر، فأفاد الحاكم من خبرة مسلمي الأندلس وخبرة أهل الجزائر في المجال البحري، فتحولت البحرية العثمانية فجأة إلى واحدة من القوى الكبرى في البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر (هلايلي، 2008، صفحة 35).

فمن هنا نلاحظ عدة نقاط منها: أدى استحواذ الدولة العثمانية على الجزائر إلى الإفادة من موقعها، وأيضًا الخبرات البشرية الموجودة على أراضيها؛ فأدى ذلك إلى عدة نتائج إيجابية منها، توسيع القوة العثمانية إلى غرب البحر المتوسط، وأدى أيضًا إلى صدام لا مفر منه مع القوة الإسبانية الموجودة في البحر المتوسط.

بدأ خير الدين بربروسا يقود أسطولًا قويًا يهاجم سواحل إسبانيا الكاثوليكية، وبعض الدول النصرانية وسفنهم، متخذًا من الجزائر قاعدة للانطلاق، وبدا بوضوح أن صراعًا بحريًا ضخمًا لا بُد، وأن يقع بين الأتراك والهابسبورج (كانوا أهم العائلات الحاكمة في أوروبا، وكان منهم الأباطرة المنتخبين في الإمبراطورية الرومانية، وكذلك الإمبراطوريات النمساوية والإسبانية، والعديد من البلدان الأخرى (عاشور، 1976، صفحة 85)، ونلاحظ بنتيجة هذا الصراع سيتحدد مستقبل المغرب الكبير (مؤنس، 1987، صفحة 359).

وفي أثناء تولي خير الدين بربروسا إيالة الجزائر، وقعت حرب بين الدولة العثمانية والبندقية وذلك ما بين الفترة (1537- 1540) استولت الدولة العثمانية في هذه الحرب على آخر معاقل البندقية على ساحل اليونان: وهم سيينوريا Signria (في الجنوب) ونابولي دي رومانيا، فأسرعت البندقية بعمل تحالف مع الهابسبورج والبابوية، وكان شارل الخامس قد أنشا ما يشبه أن يكون حماية على تونس بمعاونة بعض الحفصيين المتأخرين، وتكون بالفعل أسطول أوروبي لقى الأسطول العثماني في معركة بريفيسا سنة 1538م وانهزم الأسطول الأوروبي، فضمن العثمانيون بذلك سيادتهم على البحر المتوسط (مؤنس، 1987، صفحة 359).

المبحث الثاني: أثر المتغيرات السياسية على صراع الهيمنة الأوروبية العثمانية في البحر المتوسط منتصف القرن السادس عشر .

كان لمعركة بريفيسا أثر نفسي كبير على الساحة والسياسة الأوروبية، وتبدلت كثيرًا من الأمور والمتغيرات السياسية على الساحة الأوروبية والدولية تمثلت في:

إذ كانت بداية المتغيرات خروج البندقية من هذا الصراع الأوروبي العثماني، وعقدت معاهدة مع الباب العثماني سنة 1540م، ضمن بهذه المعاهدة آخر معقل لها في المورة "اليونان"، ولكن الصراع بين الهابسبورج والعثمانيين ظل على قدم وساق (Goffman, 2002, p. 148).

وكان ثاني هذه المتغيرات السياسية، التحالف الفرنسي العثماني، عن طريق الملك الفرنسي فرانسيس الأول (1515- 1547م)، وتلاه لاحقًا هنري الثالث (1574- 1589م)، إلى تفاهم وثيق مع السلطان سليمان القانوني (1520- 1566م)، ووفقًا لهذا الاتفاق انضم أسطول خير الدين إلى الأسطول الفرنسي في حربه مع الهابسبورج وساعد الفرنسيين على استعادة نيس سنة 1543م، وفي سنة 1551 تمكن العثمانيون من طرد الإسبان من طرابلس، وحاول الإسبان محاربة العثمانيين مرة أخرى قرب سواحل جربة سنة 1560، ولكنهم انهزموا، وكذلك فإن الأسطول العثماني لم يستطع الاستيلاء على مالطة من أيدي فرسان القديس يوحنا، وكانوا قد تمركزوا فيها بعد طردهم من رودس (Goffman، 2002، صفحة 151).

أدت هذه المتغيرات السياسية الأوروبية والدولية، إلى اتساع نشاط الأسطول البحري العثماني، والتغير في خطته الاستراتيجية من ساحل البحر المتوسط إلى ساحل البحر الأحمر، بعد أن أحكم السيطرة على سواحل البحر المتوسط والتوسعات الإسبانية فيه، وندلل على هذا الاستنتاج باتساع نشاط الأسطول العثماني وتغير استراتيجيته التوسعية نحو البحر الأحمر.

استولى العثمانيون على سواكن ومصوع وأخرجوا البرتغاليين من مياه ذلك البحر، وفي سنة (1538م) سار أسطول عثماني عبر البحر الأحمر وواجه البرتغاليون في معركة ديو البحرية (1509م) قرب سواحل الكجرات، ومع أنَّ الأسطول العثماني انهزم فإنَّ هذه المعركة كانت عاملا كبيرًا في زعزعة سلطان البرتغاليين في بحار آسيا، وكذلك استولى العثمانيون على ساحل الحبشة وهو يشمل أجزاء من سواحل إرتريا والصومال، فأسهم ذلك بانتعاش التجارة بين آسيا والغرب الأوروبي عن طريق الدول الإسلامية من جديد (مؤنس، 1987، صفحة 360).

وكانت سيطرة البرتغاليين على بحار آسيا قد حولت التجارة إلى طريق البر من الآستانة إلى حلب إلى البصرة، وكانت البصرة قد دخلت ضمن الدولة العثمانية، ما أسهم ذلك في انتعاش الاقتصاد والقوة العسكرية والبحرية للدولة العثمانية. ومن المتغيرات الخارجية التي أثرت على سرعة التوسعات العثمانية على سواحل البحر المتوسط، ننتقل إلى أهم المتغيرات الداخلية لسياسة الدولة العثمانية التي أثرت على تلك النجاحات، إذ انشغل السلطان سليمان في أواخر عهده بالنزاعات والفتن بين أفراد أسرته وخصوصًا أولاده، وكان أكثر الأولاد مسببًا للفوضى ابنه مصطفى، حيث أثار الفوضى في آسيا الصغرى، بل كاد يحرم الجيش العثماني من فرق الخيالة الممتازة التي كانت تعرف باسم "السيباهي"، وانتهى هذا الأمر بقتل مصطفى ابن السلطان سليمان سنة 1553م، بمساعدة زوجة السلطان سليمان، التي تسمى السيدة "خرم"، وكذلك معاونة الصدر الأعظم رستم باشا (Atçıl, 2016, p. 168)، ولم تنتهِ الفتن بموت الابن مصطفى، بل وقع النزاع بين سليم وبايزيد ابن السيدة خرم، وانتهى بمصرع بايزيد سنة 1561م، وفي سنة 1566 توفي السلطان سليمان القانوني بعد فترة حكم مليئة بالفتوحات والانتصارات (أمجان، 2014، صفحة 126).

من هذه المتغيرات نستنتج عدة ملاحظات منها:

- كان الاتجاه الرئيسي للقوة العثمانية المحسوسة في مناطق متفرقة من البحر المتوسط يكمن في إحكام السيطرة والقبضة على التوسعات الإسبانية غرب البحر المتوسط.
- خسارة أوروبا لتحالفاتها وتفككها أدى إلى خسارتها الكثير من ثرواتها وقوتها البحرية، وخصوصًا الأسطول الإسباني؛ وأيضًا جعل الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروسا، ومن بعده القائد البحري تورغوت، يسير بحرية في وسط البحر المتوسط.

- كان تأثير معركة بريفيسا كبيرا بالنسبة لسياسة أوروبا والدولة العثمانية في توسعاتهم في البحر المتوسط، إذ كانت نتائج المعركة بداية صعود البحرية العثمانية بالكامل على شرق البحر المتوسط - وهو الوضع الذي ظل دون منازع حتى معركة ليبانتو عام 1571، وأيضًا أدت إلى تفكك سياسي أوروبي، أدى إلى خسارة ثروات ومناطق مهمة تجاريًا لأوروبا، وقد استغلت الدولة العثمانية هذه المتغيرات لصالح إستراتيجيته التوسعية سواء في البحر المتوسط أو البحر الأحمر.

المبحث الثالث: المواجهة العسكرية للقوى الدولية في مياه البحر المتوسط وأثرها على أثر على استراتيجية التوسعات البحرية (معركة ليبانتوا 1565-1571)

عند وفاة السلطان سليمان القانوني كانت الدولة العثمانية قد بلغت أقصى اتساعها، وخاضت الكثير من الحروب في ميادين الشرق والغرب، وحققت لذاتها هيبة ومكانة دولية كبيرة في العالم، وفي منطقة حوض البحر المتوسط، ومن خلال هذه المكانة الدولية، ظهر لها الكثير من الأعداء المنافسين على المكانة الدولية، وظل يتربصون بها من أجل استغلال أي نقطة ضعف لينالوا منها، ومن مكانتها الدولية المتزايدة في قارات أوروبا وآسيا وأفريقيا.

ورث سليم الثاني (1524- 1574) عند جلوسه على العرش بعد وفاة والده عام 1566م، دولة متسعة ومتعددة القارات، ومِن ثَمَّ يملأها الكثير من المشكلات والتحديات، وخصوصًا عندما يتولى أمر الدولة سلطان جديد، فكان أبرز هذه التحديات ظهور بعض حركات التمرد، فقامت حركة تمرد واسعة في اليمن عام 1567م، فكان من نتائج هذا التمرد أن حصر العثمانيين في الشريط الساحلي، وكلف هذا التمرد الدولة العثمانية كثيرًا من قوتها وهيبتها، فقد استطاع العثمانيون إعادة فرض سيطرتهم على اليمن بعد عامين من بداية التمرد، وأيضًا وجه سليم حروبًا مستمرة في المجر، وكذلك تمرد عربي في الأهواز شمال البصرة في العراق (Blackburn, 1980, pp. 119-130).

ومن الاستراتيجية الخاطئة أيضًا للدولة العثمانية في هذه الفترة، أنها استهلكت الكثير من وقت وجهد الدولة في مشاريع كبيرة لا تستطيع تنفيذها، كمشروع قناة السويس لإعادة حركة التجارة العالمية من رأس الرجاء الصالح الذي سيطر عليه البرتغال إلى طريق التجارة القديم، كما بدأت عام 1569م في فتح قناة بين نهري الدون والڤولگا، وذلك لتأمين المرور بين البحر الأسود وبحر الخزر، ولكن قوبل بتحديات كبيرة، كان أبرزها وجود مصالح لحكام الأقاليم تتعارض مع شق مثل هذه القناة، ولم تكتمل القناة رغم خوض الدولة كثير من الحروب في هذه المنطقة لأجل هذا المشروع، فأخذ من وقتها في ظل تنامي المشروع الاستعماري الأوروبي تجاه الشرق، وأيضًا كون تحالفات فيما بينهم لتكون حائط صد ضد الدولة العثمانية (أوزتونا، 1988).

ورغم هذه التحديات التي واجهتها الدولة، والمشاريع الكبيرة التي أعلنت عنها الدولة العثمانية، فإنهم صبوا اهتمامهم في فتح جزيرة قبرص التي كانت تحت سيطرة البنادقة، حيث كانوا يروا أنها تمثل عقبة كبيرة في طريق التجارة المزدهرة بين إسطنبول ومصر، وكانوا البنادقة أيضًا يمارسون من خلال هذه الجزيرة القرصنة البحرية، لذا بدأ العثمانيون بالتجهيزات لفتحها، رغم إدراكهم أن هذا الفتح سوف يؤدي إلى قيام تحالف مسيحي أوروبي ضدهم، ويكون هذا الفتح الطريق لتوحيد أوروبا ضد الخطر العثماني المتمددة في الاتساع (Elliott, 2000, p. 190).

فكانت قبرص تمثل أهمية خاصة للعالم الأوروبي في صراعه مع الدولة العثمانية، وعندما علمت أوربا بنوايا العثمانيين تجاه قبرص تحرك البابا "بيوس الخامس"، وعقد معاهدة اتفاق ضد الدولة العثمانية

في (25 من مايو 1571م) مع ملك إسبانيا والبندقية وبعض الدويلات المسيحية، وكان هذا الاتفاق المسيحي الاتفاقُ الثالث عشر الذي تعقده أوربا ضد الدولة العثمانية منذ تأسيسها، هذا التحالف الذي أصبح يعرف باسم "العصبة المقدسة"، انضمت إليه قوى مسيحية أخرى من بينها فرسان مالطا (Chesterton, 2003, p. 42).

جُمِّع أسطول العصبة المقدسة أخيرًا في ميسينا في سبتمبر 1571 تحت قيادة "دون جون"، وهو ابن غير شرعي للإمبراطور الإسباني "كارلوس الثاني"، وهو من كبار قادة البحر، وأبحر على الفور في المياه اليونانية، علم العثمانيون بالاستعدادات وتحالفات بتكوين أسطول مسيحي بحري في الأشهر الأولى من عام 1571م من مصادر موثوقة في البوسنة ودلفينا (جنوب ألبانيا)، وتسببت الأخبار في قلق كبير في إسطنبول واتخذ الديوان (مجلس الدولة) إجراءات صارمة لمواجهة الأخطار الوشيكة (Chesterton, 2003, p. 43).

ولكن يبدو أن فتح قبرص كان رغبة شخصية للسلطان وكان مدعومًا بقوة من قبل اثنين من الوزراء المؤثرين، هما: "بيالي باشا - ولالا مصطفى باشا الذي جاء لقيادة البحرية العثمانية والقوات البرية معًا"، في حين رأى الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا الأمور بشكل مختلف، إذ رأى أن هذا الفتح سيؤدي إلى تحالف بين البندقية وإسبانيا والبابا وحلفائهم الصغار بما في ذلك فرسان مالطا، وذهب إلى أكثر من ذلك؛ إذ رأى أنَّ في الصلح مع البندقية واجتذاب فرنسا، محاولة لتفتيت هذا التحالف الأوروبي المسيحي، ولكنه فشل أيضًا في ذلك، فمِن ثَمَّ كان عليه الاستعداد لمواجهة أكبر تجمع بحري مسيحي في شرق البحر المتوسط (C. Imber, 2002, p. 62).

اعتقد العثمانيون أنَّ هذا التحالف الأوروبي البحري، من أجل وقف الحصار المستمر على فاماغوستا في قبرص، علاوة على ذلك، فإن إقامة أسطول مسيحي كان بالنسبة لهم بمثابة مواجهة بين المسيحية والإسلام.

ومن الأخطاء الكبرى التي وقع فيها الأسطول العثماني، أنَّه لم يكن لديه فكرة واضحة عن المكان الذي سيهاجم فيه الحلفاء المسيحيون أسطولهم، وبدأوا يتجولون بين جزيرة كريت والممتلكات العثمانية في البحر الأدرياتيكي على أمل أن يلتقوا بأسطول العصبة المقدسة، ولكن كان دون جدوى، ما تسبب بأن عددًا من الجنود العثمانيين بدأوا في مغادرة الأسطول، ولم يفعل القادة العثمانيون شيئًا لمنع القوات من المغادرة لأن الشتاء كان يقترب، وأيضًا لأنهم بدأوا يعتقدون أن هذا التحالف من المسيحيين يفتقر إلى الشجاعة لمحاربة القوة العثمانية الهائلة. (Yildirim, 2007, p. 535)

اتضح أن العثمانيين خانتهم التقديرات وقوتهم هذه المرة، فقد فجأ أسطول العصبة المقدسة في 7 أكتوبر 1571م الأسطول العثماني المتبقي في خليج ليبانتوا، وهذا الخليج هو آخر معاقل البنادقة في قبرص، فهُزم الأسطول العثماني شر هزيمة من أسطول التحالف، وحرقت كثير من السفن العثمانية، وقتل الكثير من الجنود والبحارة العثمانيين، واكدت هذه الهزيمة رؤية الصدر الأعظم محمد صوقللو باشا بأنَّه كان محقا وذا بصيرة سياسية، وأيضًا وجهت هذه الهزيمة ضربة كبيرة إلى القوة البحرية العثمانية في البحر المتوسط (Yildirim, 2007, p. 541).

كان لمعركة ليبانتو أثر كبير في الاستراتيجية التوسعية العثمانية في البحر المتوسط، فتمثلت هذه التأثيرات كالآتي:

كانت هذه أول هزيمة كبيرة للبحرية العثمانية في البحر المتوسط، وعلى الرغم من نجاح العصبة المقدسة في هذه المعركة البحرية، فإنهم فشلوا في تحقيق أي مكاسب إستراتيجية أخرى، لأن الشتاء كان يقترب بسرعة، فأسرع الأسطول للعودة إلى قواعده (C. Imber, 2002, p. 63).

كانت خسائر العثمانيين المعنوية أشد فداحة من خسائرهم المادية، إذ كانت تلك المعركة الكبيرة ذات مردود سلبي في علاقة الدولة العثمانية بالأوربيين؛ فزال من نفوس الأوربيين أن الدولة العثمانية دولة لا تقهر، وهو ما شجع التحالفات الأوربية ضدها بعد ذلك، وظهرت المراهنات على هزيمتها. أثبتت المعركة أن التكتيكات والاستراتيجية التوسعية البحرية المتبعة من القادة العثمانيين كانت خاطئة، بل كانت سببًا كبيرًا في الهزيمة، فإذا كانت الاستراتيجية نابعة بأن تكون الدولة العثمانية قوة إقليمية قد تحقق، وثبت ذلك بعد السيطرة على قبرص 1571م، فكان لا بُد من الحفاظ على مكاسب قبرص، ولا داعٍ لمواجهة التحالف المسيحي البحري، ومن ثم الهزيمة على يدهم.

رغم أن هذه الهزيمة عطلت الكثير من مشاريعها التوسعية في البحر المتوسط لمدة عام، فإنَّ الدولة العثمانية أثبتت أنَّها قوة دولية في ذلك الوقت، حيث استعادت قوتها، وشرعت في بناء أسطول بحري جديد، كان أكثر قوة وعددا من الأسطول الذي تحطم في تلك المعركة، وهو ما أثبت أن الدولة العثمانية ما زالت تحتفظ بقوتها، وأنها تستطيع في الوقت القليل تعويض الفاقد من قوتها وخسائرها نظرا لما تتمتع به الدولة من موارد وطاقات ضخمة.

واصل العثمانيون في سياستهم التوسعية على شواطئ وسواحل البحر المتوسط اللاتيني، فقاموا بعمليات توغل ناجحة في شمال إفريقيا، وكذلك إمكانية غزو الأراضي التي احتلها المسيحيون، فكل هذه النشاطات تشهد جميعها على التعافي السريع للقوة البحرية العثمانية من كارثة ليبانتو، ويمكن اعتبار نجاح حملة تونس بمثابة شهادة على التعافي السريع للأسطول العثماني من الهزيمة البحرية الكارثية في ليبانتو وإعادة الهيمنة العثمانية على شرق البحر المتوسط (C. Imber, 2002, p. 220).

الخاتمة:

يُعتبر القرن السادس عشر فترة تحول في التأريخ العثماني إلى حد كبير؛ لأنَّه كان مرحلة حاسمة من التغييرات والأزمات الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية والسياسية. تمتع العثمانيون بفترة طويلة من الاستقرار والتنمية الزراعية والازدهار المتزايد طوال القرن السادس عشر. ولكن بحلول نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، بدأت أمور الدولة تسير في اتجاه غير صحيح وتزداد سوءًا.

إن الولايات الغربية العثمانية (الجزائر، طرابلس، تونس)، كانت الأكثر صعوبة في السيطرة عليها لأنها كانت بعيدة جغرافيًا عن إسطنبول. عدم الاستقرار الناتج عن المشاكل الاقتصادية والسياسية جنبًا إلى جنب مع القوة المتصاعدة للنخبة الحاكمة الجديدة، سمة من سمات المشاكل في المناطق المحيطة بالدولة العثمانية، وكذلك عززت الظروف الدولية الجديدة استقلالية الولايات، ولا سيما في الجزائر العاصمة.

الأحداث الدولية في منطقة البحر المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، كانت تخضع لتأثير قوتين كبيرتين متصارعتين هما الدولة العثمانية والمملكة الإسبانية، لذلك البحر المتوسط ساحة صراع دولي على مر التاريخ، ولم تستطع دولة بمفردها السيطرة عليها كاملة، إلا في لفترات زمنية محدودة، وذلك لجغرافيتها المتنوعة ومصادر ثرواته، التي هي مطمع للجميع.

حالة الضعف والتفكك التي شهدها المغرب الكبير جعلته عرضه للأطماع الاستعمارية الأوروبية، وخاصة إسبانيا بدافع تحقيق مشروع استعماري ضخم يهدف إلى ابتلاع المنطق بكاملها، وهذا ما نراه في وقتنا المعاصر من رغبة كثير من الدول الأوربية والغربية في السيطرة على مناطق البحر المتوسط، بل تعمل على زيادة الأزمات واشتعالها بين الدول الإسلامية المطلة على المتوسط لتكون المستفيدة دومًا من تلك الأزمات.

ظهور الأخوة بربروسا، وتأسيس ولاية الجزائر، جعل منها قلعة أمامية إسلامية حصينة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وطرفًا فاعلًا في العلاقات الدولية آنذاك، هذه المكانة كان لها تأثيرات؛ منها الحملة الدولية عليها بزعامة إسبانيا عام 1541م، فهذا يفسر ما نراه من أحداث معاصرة على سواحل المتوسط، كالذي يحدث في ليبيا وسوريا وغيرهما من الدول الإسلامية.

قائمة المراجع:

المراجع العربية

- أمجان, فريدون - ترجمة: جمال فاروق وأحمد كمال (2014). *سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين*. القاهرة: دار النيل.
- أوزتونا، يلماز. (1988). *تاريخ الدولة العثمانية*. إسطنبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل.
- عاشور، سعيد. عبدالفتاح. (1976). تاريخ أوروبا في العصور الوسطى- الجزء الأول. القاهرة: دار النهضة العربية.
- مشرف، عبداللطيف. عبدالغنى. (2017). *هجرات الموريسكيين*. القاهرة: منشورات الربيع.
- مؤنس، حسين. (1987). *أطلس تاريخ الإسلام*. القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي.
- هلايلي، حنيفي. (2008). *أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني*. الجزائر: دار الهدى.

المراجع الأجنبية:

- Atçıl, Z. (2016). Why Did Süleyman the Magnificent Execute His Son Şehzade Mustafa in 1553 ?". *THE JOURNAL OF OTTOMAN STUDIES. Issue XLVIII*, 168.
- Blackburn, c. J. (1980). The collapse of Ottoman authority in Yemen 968/1560-976/1568. *Die I/Velz' dex Islams*, 119- 130.
- C. Imber. (2002). *The Ottoman Empire, 1300-1650 The Structure of Power*. New York: Basingstoke.
- Chesterton, G. K. (2003). *Lepanto with Explanatory Notes and Commentary, Dale Ahlquist.* San Francisco: Ignatius Press.
- Elliott. (2000). Europe Divided: 1159-1598. *Wiley-Blackwell*, 190.
- Goffman, D. (2002). *The Ottoman Empire and Early Modern Europe.* London: Cambridge.
- Hess, A. C. (1968). The Moriscos: An Ottoman Fifth Column in Sixteenth-Century Spain. *The American Historical Review*, 3.
- Yildirim, O. (2007). *The Battle of Lepanto and its impact on Ottoman history and historiography.* Palermo: Mediterraneo in Armi.

The conflict of international power and its expansionist strategy on the coasts of the Mediterranean Sea during the middle of the sixteenth century. (Analytical Study).

Abdellatif Abdellatif Abdelghani Meshref
PhD Researcher, Department of Modern and Contemporary History
Faculty of Women - Ain Shams University - Egypt
abdeltaifmy@gmail.com

Assistant Professor. Salwa Ibrahim

Assistant Professor of Department of Modern and Contemporary History
Faculty of Women - Ain Shams University - Egypt

Assistant Professor. Khalaf Abdul Azim Al-Merry
Assistant Professor of Department of Modern and Contemporary History
Faculty of Women - Ain Shams University - Egypt
khelmeery@gmail.com

Abstract:

During the sixteenth century, the Mediterranean Sea was described as a "Battlefield", which was between two international powers, the Kingdom of Spain in the west and the Ottoman Empire in the east. The sixteenth century witnessed evidence of the power and expansion of the Ottoman Empire, as well as the rise of Spain's power after its unification at the hands of Ferdinand and Isabella, the Mediterranean Sea was a meeting point for the expansions of those international powers, and it also witnessed in this historical period the expansion of the Ottoman Empire's strategy on its coasts, as well as the European desire for Spanish and other power to control the Mediterranean Sea. This study will deal with the expansion of the Ottoman Empire on the coasts of the Mediterranean, as well as shed light on the Ottoman-Spanish conflict in this historical period, as well as the geographical location represented in the Mediterranean Sea.

Keyword: Ottoman Empire, Mediterranean Sea, International Power, the sixteenth century.

2 **Received on: 4/4/2021** **Accepted for publication on: 20/5/2021**